جامعة محمد خيضر بسكـــــرة   السنة الجامعية: 2021/2020

السنـــة أولى ماستر تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط   مقياس العمران والمراكز الحضارية

عنوان المحاضرة: العمارة الدينية الإسلامية وعناصرها المعمارية

الدكتورة: ف. شلــــوف/ جامعة بسكرة

العمارة هي طريقة البنيان لخدمة وظيفة اجتماعية محددة، تتطلب معرفة بخصائص هذه الوظيفة وعلاقتها بالبيئة وبمادة البنيان وخطط العمران من أجل أداء دورها براحة وأمان، لذلك اختلفت حسب الزمان والمكان فظهرت عدة أنواع وطرز منها العمارة الإسلامية التي تتأثر بتعاليم الدين؛ فهي لا تتمثل في عناصر معمارية وزخرفية فقط، بل في حقيقتها وأسسها وجوهرها وهي جوانب نبعت ونمت في البيئات العربية والإسلامية ونجحت في توفير كل مطالب تلك البيئات المتعلقة بالمناخ والسياسة والاقتصاد...؛ وهي أنواع: منها الحربية وتتمثل في الأربطة والأسوار والحصون والأبراج والقلاع، والمدنية كالقصور والمساكن والمصانع وغرس البساتين وتصميم المياه، ودينية كالمساجد والزوايا والمدارس والأضرحة والقباب والكتاتيب والأسبلة، هذه الأخيرة التي سنحاول التعرف عن أهمها والوقوف على مختلف عناصرها المعمارية.

1 ــ المسجـــد: المسجد بالكسر إسم لمكان السجود، والمسجَد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود، والمسجد بكسر الميم الخمرة وهي الحصيرة الصغيرة.

يفسر الزركشي السبب في إختيار كلمة مسجد لمكان الصلاة فيقول: " لما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق إسم المكان منه فقيل مسجد ولم يقولوا مركع " ، والمسجد هو أول مكان عبادة في الديانة الإسلامية إنطلاقا من مسجد الرسول **صلى الله عليه وسلم** الذي يسميه الدكتور حسين مؤنس بأبو المساجد.

وضع المخطط الأساسي لبناء المساجد في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأمة الإسلامية فكانت المساجد الأولى بسيطة في تخطيطها تناسب شعائر الدين الجديد، فهي قطعة أرض تحاط بأربعة جدران أو خندق، سقفها من الجريد والطين يقام على أعمدة من جذوع النخل بتوسع الدولة الإسلامية وارتفاع عدد المسلمين، أصبح من الضروري بناء مساجد واسعة وهي التي عرفت بالمسجد الجامع الذي أصبح من أهم معالم المدينة الإسلامية وكان الخليفة بنفسه أو من ينوب عنه مؤهلا لإمامة المسلمين، خصوصا يوم الجمعة والمسجد اكتسب صفة الجامع من اجتماع المسلمين فيه لأداء هذه الفريضة، كما أصبح مصطلح جامع يطلق على كل المساجد الكبيرة.

بالنسبة للعمارة المسجدية فقد كانت نواتها الأساسية مسجد الرسول **صلى الله عليه وسلم** الذي احتوى على العناصر الرئيسية وهي بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر التي سوف يأتي تفصيلها مع مراعاة شروط أساسية تساعد على أداء الصلاة براحة وعلى الاستماع إلى الخطيب بيسر نذكر منها:

ــ الاتصال بين المصلين وتراص الصفوف.

ــ خلو صحن المسجد من الأعمدة التي تقطع صفوف المصلين.

ــ عدم وجود حائل يمنع من تلاحق وتتابع صفوف المسلمين.

ــ وجود جدار نافذ بين الصحن والحرم.

ـ لا يكون الدخول إلى صحن المسجد مباشرة.

تطورت هذه العمارة مع توسع الفتوحات الإسلامية واحتكاك المسلمين بالروم والإيرانيين....فأضيفت أجزاء أخرى، كالمئذنة والعقود والزخرفة...، حيث نجد تخطيط المسجد مربعا في العراق وإيران، لأن أماكن العبادة السابقة في المنطقة كانت مربعة الشكل، ومستطيلا في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام لأن الكنائس المسيحية في هذه المناطق كانت مستطيلة.

وكان للمعماري المسلم الحرية في ابتكاراته المعمارية فظهرت عدة أساليب في العمارة المسجدية منها: الأسلوب الأموي والعباسي والمغربي والإيراني والمملوكي العثماني.

العناصر الأساسية في العمارة المسجدية: عمارة أي مسجد يجب أن تتوفر على عناصر أساسية توفرت في مسجد الرسول **صلى الله عليه وسلم** وهي : بيت الصلاة، الصحن، القبلة، المحراب والمنبر.

ـ **بيت الصلاة:** عنصر أساسي في العمارة المسجدية، فيها توجد القبلة والمحراب والمنبر، ظهرت مع مسجد الرسول **صلى الله عليه وسلم**، وهي عبارة عن جزء مسقوف من الصحن يقوم على عمد تحمل فوقها عقودا، فوق هذه الأخيرة يقوم السقف، تقسم بيت الصلاة بواسطة الأعمدة إلى أروقة عمودية تبدأ من المدخل الرئيسي للمسجد وتنتهي بجدار القبلة تعرف بالأساكيب (جمع أسكوب) وأخرى موازية لجدار القبلة تعرف بالبلاطات جمع بلاطة، وعدد ها يحدد عمق بيت الصلاة أو ما يعبر عنه بالجوف، غالبا ما يكون الرواق المؤدي إلى المحراب أوسع من باقي الأروقة ويعرف بالرواق الأوسط أو الرئيسي أو المجاز القاطع، تكون بيت الصلاة في مساجد المغرب الإسلامي على أكبر مساحة ممكنة من المسجد مع إلغاء الأروقة الجانبية والخلفية في الصحن وهذا بسبب الظروف المناخية وكثرة تساقط الأمطار مقارنة مع المشرق الإسلامي.

ـ **الصحن:** هو ما يوجد داخل جدران المسجد من فناء مكشوف يخصص للصلاة في مناسبات الصلوات الجامعة، يشمل في بعض مساجد المشرق الإسلامي على أروقة جانبية وأخرى خلفية مثل المسجد الجامع لابن طولون بمصر، تتقلص مساحته في المناطق الباردة وشديدة الحرارة.

ـ **القبلة:** لغة هي الجهة، يقال ليس لفلان قبلة أي ليس له جهة، أستعملت في القرآن بمعنى الناحية التي يوجه المسلمون وجوههم نحوها.

أما كعنصر معماري فهي صدر المسجد، وجداره المتجه نحو الكعبة المشرفة ولقد كانت القبلة في أول الإسلام نحو المسجد الأقصى ثم حولت نحو مكة المكرمة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾، والقبلة ظاهرة عبادة ينفرد بها الإسلام عن باقي الديانات الأخرى، رغم إدعاء اليهود أنهم عرفوا القبلة وهي مكان خزانة الكتب الدينية في معابدهم وهذا زعم خاطئ، لأن هذه الخزانة توضع في صدر المعبد دون النظر إلى اتجاهه، أما المسيحيون فيقولون أن الكنائس المسيحية الأولى كانت توجه نحو الشرق،

وهذا لم يثبت عبر التاريخ، رغم وجود بعض الديانات الوثنية التي تحث أتباعها على استقبال مطلع الشمس عند الصلاة في الصباح ومغربها عند الصلاة في المساء (مثل عبادة قرص الشمس).
القبلة ميزة انفردت بها المساجد عن غيرها من أماكن العبادة في الديانات الأخرى، تدخل ضمن الشروط الأساسية في عمارة المساجد، فهذا الجزء له العناية الكبرى هندسيا وفنيا، فتخصص له أحسن مواد البناء من رخام ومرمر وأخشاب ويخص بجهد كبير من قبل المعماري والمزخرف والنقاش.

ــ **المحراب:** ورد في لسان العرب، لابن منظور عدة تعريفات للمحراب منها: " صدر البيت وأكرم موضع فيه والجمع محاريب وهو أيضا الغرفة؛ وعند العامة هو الذي يقيمه الناس اليوم ليكون مقام الإمام في المسجد؛ وهو أيضا أرفع بيت في الدار؛ وفي الحديث أن النبي **صلى الله عليه وسلم** بعث عروة بن مسعود رضي الله عنه إلى قومه بالطائف فأتاهم ودخل محرابا له، فأشرف عليهم عند الفجر، ثم أذن للصلاة قال: وهذا يدل على أنه غرفة يرتقى إليها.
والمحاريب: هي صدور المجالس ومنها سمي محراب المسجد، ومنه محاريب غمدان باليمن؛
المحراب: القبلة؛ ومحراب المجلس: صدره وأشرف موضع فيه؛
أما محاريب بني إسرائيل: فيقصد بها معابدهم التي كانوا يجلسون فيها.
وقد ورد في القرآن الكريم لفظ محراب في قوله تعالى: ﴿ **فخرج على قومه من المحراب**﴾ نفهم من هذه التعاريف أن المحراب هو أهم مكان في المسجد ومن العناصر الأساسية في عمارته.
وجد المحراب منذ عهد الرسول **صلى الله عليه وسلم** الذي وضع بيده الكريمة حجرا في جدار القبلة في مسجد قباء وفعل نفس الشيء أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ليكمل الصحابة بناء المحراب، لكن لم يذكر المؤرخون شكل هذا المحراب هل هو مجوف أو مسطح؟، وغالب الضن أنه كان مجوفا لأنه الشكل الغالب في معظم المساجد وفي مختلف العصور ولأن وظيفته تقتضي ذلك، وما هو ثابت تاريخيا وجود المحراب المجوف في الجدار الجنوبي الخارجي لمبنى قبة الصخرة في بيت المقدس منذ 72هــ692م.
تنوعت أشكال المحاريب بين المسطح والمتوسط التجويف والعميقة، فكان المحراب المجوف في المسجد الجامع بدمشق، أما مساجد العصر العباسي كانت محاريبها على شكل نصف دائرة مكساة بالفسيفساء الرخامية أو الزجاجية مع وجود زخارف جصية أو حجرية، كما وجد المحراب المجوف على شكل هيئة حدوة الفرس لكن بشكل مصغر والبعض الآخر تميز بجوانب مسقطة على هيئة متكسرة أي يضيق عرضه كلما زاد عمقه أو ما يعرف بالمتعدد الأضلاع الذي كان منتشرا في عهد المرابطين، ونسجل أيضا وجود نوع آخر وهو المسطح الذي نلاحظه في الكهف الموجود تحت الصخرة في الحرم القدسي وفي جامع ابن طولون.
وقبة المحراب المجوف غالبا ما تكون على هيئة نصف قبيبة مزخرفة بزخرفة هندسية أو نباتية أو كتابية، أو على شكل محارة مقلوبة مثل مسجد الأقمر بالقاهرة، كما نجد محرابا فريدا من نوعه في مسجد قرطبة، فهو محراب مجوف على هيئة محارة في الأعلى بها أروع النقوش، تعتبر آية من آيات النحت والفن المعماري الإسلامي، أما في العمارة العثمانية فقد انتشر أسلوب عمل طواقي المحاريب في صفوف مقرنصات.
ــ **المنبر:** لغة: مشتق من النبر وهو العلو والارتفاع في الصوت وفي رسم الحروف خاصة، والمنبر هو مرقاة الخاطب، سمي منبرا لارتفاعه وعلوه، إنتبر الأمير ارتفع فوق المنبر.

الدكتورة: وسيلة بن تشايت / جامعة بسكرة

ظهر المنبر لأول مرة في مسجد الرسول **صلى الله عليه وسلم** وهو عبارة عن ارتفاع في الأرض إلى جانب موضع المحراب، بني بالآجر وكان الرسول **صلى الله عليه وسلم** يجلس عليه، وهذا ما يوحي أنه كان مساحة متسعة، بقيت المنابر بهذا الشكل إلى عهد معاوية الذي صنع منبرا خشبيا من ست درجات ومقعد نقله معه في رحلته إلى مكة، ومن المنابر الخشبية الكبيرة الحجم ما كان موجودا في مسجد قرطبة، ثم يأتي منبر جامع عمرو بالفسطاط الذي وضع من قبل الخليفة الفاطمي الحاكم عام 405هـ1014م، إلا أننا نجد صعوبة في تحديد تاريخ معين للمنابر أو الوقوف بدقة على تطورها إذ لم تكن هناك قرينة في صناعتها أو زخرفتها تدل على عصرها أو تعين تاريخ صناعتها، ومن المنابر التي انتشرت أيضا المتحركة على عجلات التي توضع في مكانها في الصلوات الجامعة ثم تؤخر نحو الجدار إن لم تكن لها حاجة أو توضع في خزانة لها مثل ما هو موجود في المسجد الجامع بالإسكندرية وجامع الزيتونة بتونس، ونجد أيضا من يقترح ضرورة القضاء على المنابر البارزة في بيت الصلاة، وتحويلها من أثاث مسجدي إلى جزء من العمارة المسجدية، كأن تكون هناك شرفة في جدار القبلة يطل منها الخطيب إطلالة مباشرة على الناس.

2 ـ الزاويـــة: تعرف لغة: بركن البيت، جمعها زوايا، عند الحجارين والنجارين وغيرهم هي آلة ذات ضلعين مستقيمين يتصل طرفاها فيحدثا زاوية قائمة ، أما ياقوت الحموي فيقول: يلفظ زاوية البيت عدة مواضع منها: قرية بالموصل من كورة بلد، والزاوية موضع قرب البصرة كانت به الموقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمان بن محمد بن الأشعث سنة 83هـ702م.

ولفظ زاوية كان يطلق على صومعة الراهب المسيحي (zwvia)، ثم أصبحت تطلق على المسجد الصغير أو على المصلى، وهو المعنى المنتشر للزاوية عند المسلمين في الشرق الإسلامي، أما في المغرب الإسلامي فالكلمة لها معنى أكثر شمولية إذ تطلق على بناء أو مجموعة من الأبنية ذات الطابع الديني، تشبه الدير أو المدرسة، وقد ذكر دوماس(Daumos) تعريفا جيدا للزاوية المغربية عام 1263هـ1847م حيث يقول: " إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة، وهي بهذين الوصفين تشبه كثيرا الدير في العصور الوسطى " ، يتفق هذا التعريف في جوهره مع المعنى الحالي للزاوية فهي تضم: غرفة للصلاة بها محراب، ضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف تعلوه قبة، غرفة مخصصة لتلاوة القرآن، وغرفا مخصصة لضيوف الزاوية وللحجاج والمسافرين والطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقبرة لشيوخها أو للذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها.

خلال العصور الوسطى ارتبط مصطلح زاوية في المغرب الإسلامي بالرابطة أي الصومعة التي يعتزل فيها الولي ويعيش بين تلاميذه ومريديه، كما كانت الزاوية مكانا يلجأ إليه الناس هروبا من الدنيا ومركزا للحياة الدينية والصوفية ومدارس دينية ودور ضيافة مجانية، ولحد اليوم مازالت الزوايا في شمال إفريقيا سواء الموجودة في المدن أو الأرياف تمثل المقر الرئيسي أو الفروع للمرابطين أو الطوائف الدينية.

ويذهب الكثيرون إلى أن أصل الزوايا هو الرباطات جمع رباط وهي الثغور التي يتمركز بها المجاهدون لحراسة الحدود ومحاربة الأعداء ونشر الإسلام، كما ارتبطت بحركة التصوف لأن مؤسسوها متصوفون زهاد، وانتشرت الزوايا بشكل واسع في المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس والثامن الهجري، وعرفت بعدة تسميات منها دار الكرامة عند الموحدين ودار الضيوف عند المرينيين والمعمرة في بلاد القبائل الجزائرية.

خلال العهد العثماني عرفت الزوايا في الجزائر تطورا ملحوظا في المدن والأرياف والجبال والصحاري، حيث عاش المتصوفة ينشرون عقائدهم ويلقنون أتباعهم الأذكار، ويعلمون العامة أصول الدين، وإذا اشتهر أحدهم يؤسس مركزا يعلم فيه الدين وسيتقبل الزوار والأتباع؛ يعرف المكان باسم زاوية سيدي (كذا) وإذا مات يدفن فيها ويصبح الضريح علامة على الزاوية وهي علامة على الضريح.

الزاوية في معظمها تتكون من مسجد وقبة الشيخ ومبيتا للطلبة الداخليين ومساكن للغرباء والفقراء، أما عمارتها جمعت بين هندسة المسجد والمنزل؛ تتميز بحيطان قصيرة وقباب منخفضة ونوافذ قليلة ومسجدها غالبا ما يكون بدون مئذنة.

3 ـ الضريــــح: جاء في لسان العرب: الضريح شق في وسط القبر، واللحد في الجانب، وقال الأزهري في ترجمة لحد الضريح والضريحة ما كان في وسطه يعني القبر، وقيل الضريح القبر كله، وقيل هو قبر بلا لحد، والضرح حفرة الضريح للميت، وضرح الضريح للميت يضرحه ضرحا: حفر له ضريحا؛ قال الأزهري سمي ضريحا لأنه يشق في الأرض شقا ؛ هذا المعنى اللغوي للكلمة أما المتعارف عليه فهو أوسع من القبر أو شق في الأرض، بل يشمل القبر وكل المكان المحيط به، سواء أكان غرفة أو بستانا، كما استعملت مصطلحات أخرى لها نفس المدلول منها:

المشهد: ويطلق على أضرحة الشهداء أو أهل البيت، المقام: المصطلح المتداول لدى الشيعة، التربة: وهو المصطلح الذي أستعمل في العصر العثماني، إضافة إلى الروضة وهو مصطلح مستنبط من الحديث النبوي الشريف الذي قال فيه الرسول **صلى الله عليه وسلم** : " إن القبر روضة من رياض الجنة أو قطعة من الجحيم " كما أطلق على المكان الذي اختاره ليدفن فيه مصطلح روضة وقال **صلى الله عليه وسلم** : " وضع منبري على ترعة من ترعات الجنة، ومابين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " ؛ إن هذه المصطلحات لا تستعمل لعامة الناس بل فقط لأهل البيت أو الشهداء أو ولي صالح أو إمام أو سلطان أو أمير، أي الذين يكونون محل زيارة من الناس، والضريح غالبا ما يكون على شكل غرفة مربعة مغطاة بقبة، تبنى من الطوب أو الحجارة مع استعمال الزخارف الجصية على سطح القبة، ولقد استعملت القباب فوق الأضرحة بعد فترة طويلة من ظهور الإسلام لتعارض ذلك مع الأحاديث النبوية الشريفة، فقد جاء عن جابر رضي الله عنه قال: " نهى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** أن يجصص القبر وأن يعقد عليه وأن يبنى عليه ".

من أشهر الأضرحة ذات القباب التي مازالت قائمة إلى الآن القبة الصليبية في سمراء، وهي ضريح الخليفة المنتصر المتوفي عام 245هـ860م وضريح الإمام الشافعي الذي أنشئ عام 608هـ1211م وضريح السلطانة بالقرب من تلمسان في الجزائر الذي يعود إلى القرن 07 هـ13م وهو مبني بالطوب والقبة لها طبلة مثمنة محمولة على عقود بشكل حذوة الفرس، وأضرحة بني مرين بالقرب من فاس التي تعود للفترة ما بين 763هـ801هـ/1361م-1398م؛ وقد يكون مبنى الضريح منفصلا أي موجود كبناء مستقل أو تابع لمسجد أو مدرسة، وقد يكون في مجموعة معمارية تتكون من مسجد ومدرسة وضريح وسبيل وكتاب لتحفيظ القرآن.

4 ـ العناصر المعمارية في العمارة الدينية: تتمثل أهم العناصر المعمارية للعمارة الإسلامية في:

أ ـ المـــآذن: لغة مشتقة من الأذان أي الإعلام عن وقت الصلاة، وهي لم تكن معروفة أيام النبي **صلى الله عليه وسلم** حيث جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر كان يقول: " كان المسلمون حين قدموا إلى المدينة يجتمعون، فيتحينون الصلاة، ليس ينادى لها فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم بل بوقا

الدكتورة: و. تناسوق / جامعة بسكرة

مثل قرن اليهود فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة ؟ فقال الرسول **صلى الله عليه وسلم**: يا بلال قم فنادي بالصلاة ".

منذ ذلك الوقت أصبح ينادى للصلاة من فوق أسطح عالية، ولقد اختلف العلماء في تحديد أصل المئذنة ومصدرها حيث يذهب البعض إلى أنها مشتقة من أبراج الكنائس أو أبراج الحراسة والمراقبة والبعض الآخر إلى الفنارات القديمة أو أبراج العبادة في الهند وبلاد الجزيرة والعراق ، وأول مئذنة في الإسلام هي التي شيدت من الحجر في جامع البصرة سنة 45هـ665م ثم الأربع مآذن التي كانت لجامع عمر ابن العاص في الفسطاط عام 53هـ673م والتي عرفت بالصوامع، ومصدر الإسم من الصوامع العالية التي كانت في المعبد الروماني في دمشق، الذي شيد المسلمون مكانه المسجد الأموي واستعملوا صوامعه الأربعة كمآذن، ثم تأتي أقدم مئذنة في المغرب الإسلامي والتي تعتبر النموذج الرئيسي الذي سار عليه تصميم المآذن في المغرب والأندلس هي مئذنة جامع القيروان بتونس التي يرجع تاريخها إلى 105هـ 724م أو 109هـ728م وتتمثل أهميتها في أنها تعد أقدم شكل متكامل ما يزال يحتفظ بجميع أعضائه المعمارية الرئيسية من قاعدة وجوسق أوسط وجوسق علوي ثم القبيبة التي تغطيه فهي ترتفع حوالي 33م، ينتهي الجوسق الأول بشرفة تدور حول جوانبها الأربعة ويحيط بها دورة من الشرفات ذات رؤوس نصف مستديرة، ونتجت الشرفة من عمل أضلاع الطابق الذي يعلو القاعدة أقل من أضلاع القاعدة التي ترتفع 19م، ثم تأتي شرفة ثانية حول الطابق العلوي أو الجوسق الذي يرتفع 5م، لتأتي شرفة ثانية تدور حول الطابق العلوي الأخير الذي يقل ضلعه عن الأسفل منه وهو يرتفع حوالي 7.50م وينتهي بقبيبة تغطيه، غالب الظن أن هذا الجوسق العلوي أعيد بناؤه في العصر الحفصي عام 692هـ1294 على نفس النمط، واجهاتها غنية بمختلف الزخارف، ويمكن القول أن صومعة القيروان طراز معماري محلي وليس لها أي صلة أو تأثير بالصوامع القديمة التي كانت في المعبد الروماني بدمشق مثلا، بإستثناء عقد حدوة الفرس الذي يوجد فوق الفتحات والأبواب والنوافذ، شكل صومعة القيروان هو الأكثر إنتشارا في المغرب والأندلس مثل ما هو الشأن في مئذنة الجيرالدا في اشبيلية والكتبية بمراكش ومئذنة جامع تلمسان التي تعود كلها إلى ما قبل القرن 6هـ12م، بل وصل إنتشارها إلى الشرق الإسلامي خاصة مصر التي عرفت عدة أنواع من المآذن أقدمها مئذنة جامع ابن طولون؛ فهي بناء منفصل عن بناء الجامع، تقع في الرواق الخارجي تقوم على قاعدة مربعة ثم تأتي طبقة أسطوانية تليها أخرى مثمنة على درج خارجي في شكل حلزوني تشبه ملوية سمراء، استمر تأثير مئذنة القيروان في مصر خلال العهد الفاطمي، وهذا ما نلاحظه في مئذنتي جامع الحاكم بأمر الله اللتان تعودان إلى عام 393هـ1004م، وكلاهما يقوم على قاعدة مربعة، في أواخر العهد الفاطمي وطيلة العهد الأيوبي عرفت مصر نموذج المبخرة؛ التي تقوم على قاعدة مربعة تنتهي بشرفة مثمنة محمولة على كوابل خشبية يعلوها طابق آخر مثمن الشكل أقل ارتفاعا من السفلي بكل ضلع من ضلوعه تجويف متوج بعقد مدبب طاقيته بها قنوات مشعة وبهذا التجويف توجد فتحة معقودة بعقد ذو فصوص، يعلو المنطقة المثمنة صفان من المقرنص تنتهي بقبة مضلعة لها استطالة رأسية، تبنى بالطوب وتكسى من الخارج بالجص.

في العصر المملوكي أصبحت المئذنة ذات قاعدة مربعة قصيرة، فوقها بدن مثمن أو مستدير ينتهي بصفوف من المقرنصات تحمل شرفات الأذان ثم يأتي جوسق إما مثمن أو مستدير بجدران مصمتة أو مفرغة، تنتهي بقبة ذات الشكل الكمثري، أو غطاء القلة، لذلك عرفت بنموذج القلة، وهي قليلة الزخارف بالمقارنة مع النموذج المغربي، يبقى هذا النموذج هو السائد إلى غاية العهد العثماني حيث ظهر نموذج عرف بقلم الرصاص، فهذه المآذن ذات شكل مستدير

الدكتورة: وشنان سعاد / جامعة بسكرة

تتكون من قنوات مقعرة أو ضلوع محدبة في وضع رأسي وتحزمها عدة نطاقات أفقية بمثابة شرفات للمؤذن تحمل على صفوف من المقرنصات الدقيقة، تقسم البدن إلى عدة طوابق، هذا الأخير يقوم على قاعدة مربعة قصيرة تبدأ من مستوى الأرض وينتهي بقمة حادة رمحية في شكل مخروط يشبه نهاية قلم الرصاص. في بلاد الشام تم اعتماد نموذج صوامع المسجد الأموي التي تقوم على قاعدة مربعة ثم بدن مربع رشيق(نحيف) بزخارف بسيطة، أما في بلاد العراق فلقد اعتمد نموذج ملوية سمراء(قاعدة مربعة ثم بدن حلزوني)، بالإضافة إلى النماذج المربعة والمثمنة والأسطوانية، غالبا ما تتكون المئذنة إما من طابقين أو ثلاثة طوابق.

بناء المآذن يكون منفصلا أو مرتبطا ارتباطا غير عضوي ببناء المساجد على العكس بالنسبة لأبراج الكنائس التي تكون جزء لا يتجزأ من الكنيسة؛ فهي ترتفع مباشرة من مستوى الأرض وبتكوين معماري خاص بها، لذلك كانت الأكثر عرضة للتهديم عند حدوث الكوارث خاصة الأجزاء العلوية منها، وتخطيطها يقوم على قاعدة مربعة، يعلوها البدن ثم يأتي الجوسق وهو الجزء العلوي من المئذنة فيه يقف المؤذن يعلوه قبة فوقها عمود به كرات معدنية أو ذهبية ينتهي بهلال أو نجمة وهلال، داخل المئذنة نجد درج يتوسطه فراغ يقع بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية التي تكون إما صماء كما هو الحال في مآذن المغرب الأوسط أو تشغلها غرف كمآذن الموحدين وقد يكون الدرج خارج المئذنة مثل ما هو الشأن في ملوية سمراء، كما قد يكون لها درج مزدوج مثل ما انفردت به مئذنة جامع قرطبة، وقد نجد بدل الدرج طريقا صاعدا يدور حول المئذنة حتى القمة مثل مئذنة جامع المنصورة بتلمسان والكتيبية والرباط واشبيلية، يسقف الدرج بقبوات نصف أسطوانية أو متقاطعة، وتحتوي المئذنة على شرفة أو أكثر يقف فيها المؤذن، ارتفاع المئذنة يكون على حسب حجم المسجد فإذا كان صغير تكون متوسطة الإرتفاع وإذا كان كبير تكون شاهقة الارتفاع مع مراعاة التناسب الهندسي في أشكالها من حيث طول القاعدة إلى ارتفاعها والذي يقدر بـــ 1/5 أي إذا كان طول القاعدة 5م يكون ارتفاعها 25م.

اختلفت مواد بناء المآذن حسب المناطق التي أقيمت فيها حيث بنيت بالحجر في الأندلس ومصر والشام وآسيا الصغرى وبعض مناطق العراق والطوب (الآجر) في بلاد المغرب والعراق، أما مكان تواجدها فيختلف من مسجد إلى آخر، فقد تكون في مقدمة المسجد أو مؤخرته أو على جانب منه أو في ركن من أركانه، إما مستقلة عن صحن المسجد وبيت الصلاة أو ملتصقة بالجدار الخارجي، وقد تكون واحدة أو متعددة ففي المشرق نجد أكثر من مئذنة في المسجد الواحد أما المغرب فمئذنة واحدة.

أدت المئذنة عدة وظائف زيادة عن وظيفتها الأساسية وهي الدعوة إلى إقامة الصلاة، منها مراقبة وهداية السفن في البحار والقوافل في الصحراء وإرسال الأخبار واستقبالها، والتنبيه إلى الأخطار بإشعال النيران ليلا والدخان نهارا، كما عرفت بعدة أسماء منها: المنارة والصومعة.

ب ــ القبـــاب: هي عنصر هام من عناصر العمارة الإسلامية في زخرفة وتصميم المنشآت المعمارية المختلفة، عرفها المعماريون في آسيا ثم انتقلت إلى الفرس واليونان فالرومان، أما المسلمون فمعرفتهم للقبة كانت تتجلى في شكل الخيمة المرفوعة بعمد خشبية، وظهرت القبة في العمارة الإسلامية بعد فترة من ظهور الإسلام لجهل العرب طريقة إنشاء القباب بالطوب والحجر ولأن طريقة التسقيف عندهم كانت تتمثل في الأسقف المستوية باستعمال الطوب والطين والخشب، لهذا يمكن اعتبار قبة الصخرة التي شيدت في العصر الأموي عام 72هــ692م أول قبة في الإسلام والتي كانت من تأثيرات بيزنطية.

الدكتورة: شلـــوق / جامعة بسكرة

وجدت القباب أمام المحراب في المساجد للتأكيد على أهمية المحراب مثل ما هو الشأن في محراب الجامع الأموي والمسجد الجامع بسوسة 236هـ851م والمسجد الجامع بالقيروان 221هـ836م ومسجد قرطبة 364هـ975م، كما توجد في آخر البلاطة المطلة على البهو، كما هو الحال في جامع القيروان اثر الزيادات التي أضافها الزيانيون وقد تكون في طرفي الرواق الأول المقابل لجدار القبلة بالإضافة إلى القبة التي تتقدم المحراب.

في مصر وضعت قباب صغيرة في أركان المسجد إضافة إلى قبة المحراب التي تكون كبيرة واستعملت في تغطية أروقة وإيوانات المساجد مثل ما هو الشأن في جامع الأقمر الذي يعود إلى العهد الفاطمي، ووضعت أيضا فوق أبواب القاهرة مثل باب الفتوح والنصر وزويلة، وفي العهد العثماني قاعة الصلاة كلها تغطى بالقباب لتأثرها بالعمارة البيزنطية، وفي بلاد ما بين النهرين استعملت القباب في المساجد والقصور مثل قصر عمرة 94هـ98هـ/713م 717م وقصر أخيضر157هـ158هـ/774م 775م.

اتخذت القباب عدة أشكال تبعا لمظهرها الخارجي؛ فهناك نصف الكرة أو جزء من كرة مدببة أو مخروطية أو بصلية أو مضلعة؛ وتحتوي غالبية أشكال القباب على طنبور(رقبة) تنظم به النوافذ، للإضاءة والتهوية ويعلو القبة في بعض الأحيان شكل الهلال أو الفانوس.

توجد في مصر عدة أنواع من القباب تعود إلى العصر المملوكي؛ منها قباب نصف كروية ومضلعة وأخرى بيضاوية وعرفوا أيضا القباب الخشبية المكسوة بالرصاص ذات الزخارف الجميلة، مثل قبة الإمام الشافعي التي تعود إلى العصر الأيوبي سنة 608هـ1211م ونفس الأشكال تقريبا عرفت ببلاد الشام، أما بلاد فارس فانتشرت بها القبة البيضية والبصلية، وفي بلاد المغرب النصف كروية وفي بعض الأحيان البيضية مثل ما هو الشأن في الجزائر مع وجود نموذج خاص انتشر في الأندلس والجزائر وهو القبة التي تتكون من قشرتين، الخارجية تكون على شكل هرمي مغطى بالقرميد، أما الداخلية فتشيد بأقواس وضلوع رفيعة من الآجر أو الحجر مثل قبة جامع تلمسان التي توجد أمام المحراب؛ فهي تقوم على قاعدة مربعة حولت إلى مثمن بواسطة حنايا ركنية غائرة مقرنصة تنفتح على الخارج بعقد مسنن منكسر، تتشكل القبة من أثني عشر ضلعا كل ضلعين من هذه الأضلاع تكون نهاية واحدة هي بمثابة عقود دقيقة متشابكة، أدت إلى ظهور أربعة وعشرون ضلعا، أثنا عشر منها ذات شكل مغزلي والباقي على شكل سهام مشعة من قمة القبة وكل ضلع يرتكز على طنف عبارة عن حلية معمارية محفورة على شكل ربع دائرة، في وسط القبة وضعت قبيبة صغيرة مقرنصة، القبة في مجملها عبارة عن تخريمات جصية مع نوافذ جصية مخرمة في الرقبة تسمح بمرور الضوء والهواء إلى داخل المسجد.

في العصر العثماني انتشرت قباب النصف كرة غير الكاملة والقباب المجتمعة أي قبة رئيسية تحيط بها قباب صغيرة أو أنصاف قباب، يتم إنشاؤها انطلاقا من مسقط دائري أو مربع؛ في حالة المربع يتوجب تحويله إلى دائرة بإقامة مثلثات كروية في الأركان أو تعمل حنيات في الأركان في منطقة الانتقال، كما يمكن أن تقام القباب على مساقط مستطيلة فيكون شكلها الخارجي بيضاوي للانتقال من المربع إلى المثمن ثم الدائرة، يتم استعمال المقرنصات في الأركان ليتم وضع الغطاء الخارجي للقبة الذي يشكل من الطوب أو الحجارة أو الخشب وسطحها الداخلي يغطى بالجص المزخرف، بأشكال هندسية أو نباتية (ورقية) أو كتابية (آيات قرآنية ونصوص تاريخية).

جـ ــ العقــود: أو الأقواس؛ تعد من الابتكارات المعمارية التي لعبت دورا هاما في تاريخ العمارة، فهي عنصر جوهري إنشائي؛ كانت معروفة لكنها تطورت أكثر مع العمارة الإسلامية حيث استخدمت في مختلف أنحاء العالم

الإسلامي، إلا أن كل قطر تميز باستخدام نوع معين، والعقود التي أقبل المسلمون على استخدامها؛ العقد النصف دائري الذي انتشر استعماله في بداية الإسلام والعقد المدبب مثل ما هو موجود في قبة الصخرة الذي توجد فيه عدة نماذج منها العقد المدبب المكون من قوسين مرسومين من مركزين وضعا على جانبي المحور الأوسط للعقد ويلتقي القوسان عند قمة العقد المدببة، والنموذج الثاني يتكون من أربعة أقواس اثنين صغيرين واثنين كبيرين مماسين لهما ويلتقيان عند القمة، ترسم الأقواس من أربعة مراكز وتكون قمته منخفضة عن قمة العقد المدبب مثل ما هو موجود في جامع أبي دلف في سمراء، النموذج الثالث كثر انتشاره في العصر الفاطمي نجده في الجامع الأزهر يتكون من قوسين ومستقيمين مماسين لهما يلتقيان عند القمة وهو يشبه قاع المركب المدبب، كما استعمل المسلمون عقد على شكل نعل الفرس أو ما يسمى عقد حدوة الفرس الذي انتشر استعماله في كل العالم الإسلامي على العكس بالنسبة للعقد المدبب الذي انتشر في المنطقة الشرقية والوسطى من العالم الإسلامي إضافة إلى هذه الأنواع الرئيسية(العقد النصف دائري، والمدبب وحدوة الفرس) نجد أشكالا أخرى وهي التي أدخلت عليها تعديلات وإضافات وزخرفة فظهر العقد ذو الفصوص؛ وهو يتألف من سلسلة عقود صغيرة أو أقواس متتالية استعمل بشكل واسع في عمارة المغرب الإسلامي خاصة في العصر المرابطي والموحدي مثل ما هو موجود في جامع تلمسان ، كذلك العقود المزين باطنها بمقرنصات التي انتشرت في بلاد المغرب والأندلس(قصر الحمراء، مدارس بني مريم في فاس وأضرحة سلاطين الأشراف السعديين بمراكش)، ظهر أيضا العقد ذو الثلاثة فصوص انتشر خاصة في العصر المملوكي بمصر من أمثلته ما هو موجود في مسجد السلطان حسن ومدرسة برقوق.

د ـــ الأعمـــدة: أو السواري؛ عرفت لدى المصريين القدماء الذين قسموا العمود إلى ثلاث أقسام رئيسية هي: القاعدة والبدن ثم الرأس أو التاج، حيث لا يمكن إقامة عمود دون قاعدة متينة من الحجر أو الآجر، ارتفاع القاعدة يختلف بحسب ارتفاع العمود نفسه وبدن العمود قد يكون من الرخام قطعة واحدة أو قطعا أسطوانية وقد يبنى من الآجر والحجر وفي هذه الحالة يسمى دعامة غالبا ما يزاوج المعماري بين العمود والدعامة، انتشرت الأعمدة والتيجان بشكل واسع مع الإغريق والرومان أما المسلمين فلقد استعملوا في البداية أعمدة نقلوها من المعابد والكنائس المخربة إلى مساجدهم مثل ما هو الشأن في جامع عمرو بالفسطاط، وفيما بعد بدؤا في إنشاء أعمدة خاصة بهم، فعرفوا الأعمدة ذات البدن الدائري أي الأسطوانية وذات البدن المثمن الشكل والأعمدة المضلعة تضليعا حلزونيا وكذلك ذات التجويفات العمودية التي انتشرت بشكل واسع مع الطراز العثماني ، أما التيجان فقد عرف المصريون القدماء شكل أغصان النخلة أو زهرة اللوتس وابتكر اليونان والرومان أشكالا بديعة منها الدوري، الأيوني، الكورنثي، وعرف المسلمون أشكالا متنوعة منها: التيجان البصلية الشكل وأخرى تشتمل على صف من الوريقات النباتية المتصلة في الجزء السفلي والتيجان المكونة من مقرنصات وأخرى على شكل ناقوس؛ تتمثل وظيفتها في توسيع المساحة العليا للعمود لإقامة العقود عليها، يتم الوصل بينها بأربطة تمتد عرضا بين تيجان الأعمدة المتجاورة لتربط بعضها إلى بعض، وتحول دون انفراجها تحت ثقل العقود أو الجدران الحاملة للسقوف.

هـــ ـــ الشرافات: وحدات زخرفية من الطوب أو الحجر توضع متراصة على حافة السقف؛ تدل على نهاية البناء أصلها إيراني اقتبسها المسلمون وتفننوا في أشكالها فمنها المتدرجة والمثلثة أو على هيئة زهرات الليلق أو اللوتس المتجاورة.

الدكتورة: و. شلـسـوف / جامعة بسكرة